مميزات الثقافة الإسلامية

المدخل

تستمد الثقافة الإسلامية ميزتها من ميزات الرسالة الإسلامية من حيث المنشأ، كما أنها تنطبع بطابع الشخصية الإنسانية التي ستعنى ببنائها على مستوى الفرد، والأسرة، والمجتمع، في مجالات الحياة كافة من حيث الهدف، نظراً للترابط العضوي بين الرسالة وبناء الإنسان، وإعمار حياته، وتشييد حضارته.

لقد تجسدت تلك العلاقة في بناء المجتمع الإسلامي الأول، كما تجسّدت مع كل بادرة تطبيق إسلامية صحيحة بحسب الدائرة التي مُورست فيها الرسالة، وزخرت الحياة بمفاهيمها وأحكامها، كما أن الوجه الآخر من الحرمان بسبب عدم التطبيق قد ترك بصماته على حياة الناس على الرغم من الرقي المادي الذي حققه، والتقدم الصناعي الذي أحرزه.

وهذا ما يفسر تفشّي الشقاء، وانتشار الجرائم، وانعدام العدل في أغلب مجتمعات عالم اليوم.

يبقى أن نقف على أبرز الميزات التي اتصفت بها الثقافة الإسلامية:

1-المعنوية: نقصد بالمعنوية، أو الفهم المعنوي للحياة، هو أن ينظر الإنسان إلى الحياة من خلال ارتباطه بالله (تبارك وتعالى)، وعموم الرابطة الغيبية التي تطلق العنان للروح؛ كي يدرك الإنسان بواسطتها المعنى الحقيقي للحياة من دون أن يكون حبيس الحواس، وأسير النزعة المادية.

إن الفهم المعنوي للحياة من شأنه أن يمنح المرء رؤية واقعية، يجمع فيها بين معطيات المادة الحسية والحقائق الغيبية التي يكشف عنها الدليل النقلي المعتبر - بالقرآن الكريم والسنة المطهرة - وما يلقاه من تجاوب فطري ينبع من أعماق النفس الإنسانية.

إن مثل هذا الفهم هو الذي يتولى تحريك الإنسان من داخله، ويعمّق فيه الشعور بالرقابة الذاتية المرتبطة بالحضرة الإلهية التي لا يغيب عنها شيء في النفس الإنسانية:

((يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور))1.

إن هذا الشعور المعنوي العارم ومن جراء هذا الفهم يعطي البذل والتضحية وكل معاني الخير مذاقاً خاصاً لا يحسّ بطعمه الإنسان المادي، هذا الشعور هو الذي يحوّل الوجود من حوله إلى ساحة عطاء تتجاوز أسوار المادة، وتهذب آليات (الأنا).

إن هذا ليس مجرد عقيدة، أو إحساس منقطع عن التعامل اليومي الذي يمارسه الإنسان مع نفسه وأهله ومجتمعه، فالأمانة، وحسن الظن، والتوكل على الله، والدعاء، والصدق في الحديث، وكل ما يمت للخير بصلة يرتكز على قاعدة "الفهم

المعنوي"، وبها يستقيم في مسارات التعامل كافة، فانبعاثه لإعطاء الحقوق المالية، وبذل الصدقات، وحسن الجوار، وصلة الرحم، وحفظ السر لمن يأتمنه، والتعفف عن كل محرم، وما إلى ذلك من مفاهيم لا يخرج عن تأثير هذا الفهم على الرغم من غياب الرقابة القانونية، والاجتماعية، وحتى الأسرية عنه أحياناً، ومن دونها يفقد كل ذلك السلوك مبرره، ويكون عاجزاً عن التفسير.
لقد تسنم الاقتصاد الإسلامي رتبة متقدمة في مجال التعاطي مع متعلقيه من الملتزمين حين ينطلقون لدفع ما بذمتهم من حقوق، وينأون بأنفسهم عن أي غش أو تدليس بعيداً عن الرقابة الحكومية ليتأكد فيهم الدافع المعنوي.

2- الربانية: إن الثقافة الإسلامية تؤكد على أن الله (تبارك وتعالى) هو الخالق، والمشرّع، والمربّي، وعليه فإن الخالق الذي أحاط بمخلوقاته من كل جانب لا يمكن أن يتصور أن يستغنى عن أحكام شريعته، أو يستعاض عنها كلياً بثقافة البشر وبتجاربهم.
إن ما تكشفه التجارب الثقافية في الحياة من تفاوت في الأفكار والقوانين من بلد إلى آخر، وفي البلد الواحد من زمن إلى آخر يجعل الظلم طابعاً عاماً على كل بني الإنسان عبر التأريخ..
لا نريد بهذا إلغاء التجربة من حياة الإنسان، أو حتى التقليل من أهميتها، فقد قال الإمام علي (عليه السلام):
(العقل عقلان، عقل الطبع وعقل التجربة وكلاهما يؤدي إلى التجربة)2
إن ما الذي نريد تثبيته، هو إن العقل التجريبي بقدر ما يوصل الإنسان إلى الحقيقة في مجالات الحياة المادية، ويمضي به إلى مديات بعيدة في المجالات كافة كما هو اليوم، وقد اقتحم الإنسان عالم الفضاء، وتوغّل إلى أصغر، وأدق المخلوقات المجهرية، لكنه ليس كذلك في فهم العقيدة والحياة المعنوية.
السعادة لا يمكن أن تُنال من دون عقيدة بالخالق، ومن دون الإذعان إلى شريعته بصفته ربّاً، وأنه (سبحانه وتعالى) يبعث الوحي لرسله؛ حتى يوصلوه إلى عباده، ولا يمكن أن يتصور أن أحكامه (جلّ شأنه) عرضة للخطأ، أو إنها رهينة التجربة.

إن الربانية تقتضي الربط بين ما يحتاجه الإنسان في كل جوانب شخصيته على صعيدي الدنيا والآخرة، وهو ما تكفل الإسلام به عقيدة وشريعة:
((إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة ألا تخافوا ولا تحزنوا وابشروا بالجنة التي كنتم توعدون* نحن أولياؤكم في الحياة الدنيا والآخرة ولكم فيها ما تشتهي أنفسكم ولكم فيها ما تدّعون))3

3- الشمولية: لم تترك الشريعة الإسلامية مجالاً من مجالات الحياة من دون أن تغطيه بالأحكام:
((لا تخلو واقعة إلا ولله فيها حكم)).

وهي إنما تناولت حياة الإنسان بالشمول ليتحقق فيها الانسجام في السلوك، حين يطبّق أحكام الشريعة من الناحية العملية، تماماً كما تنسجم مفردات الشريعة داخل إطارها من الناحية النظرية.
ففي كل ميدان يلجه المرء، وفي كل مرحلة من مراحل حياته، ومع أي مفردة من المفردات التي يتعاطى معها يجد منظومة من الأحكام الشرعية تلزمه بالتعامل على ضوء ما يريد الله (سبحانه وتعالى).
ففي مجال بناء الشخصية صبّت الشريعة اهتمامها على عناصر تكوينها - روحاً، وعقلاً، ونفساً، وخلقاً، وبدناً - وواكبته في مجال العلاقة الزوجية والأسرية عموماً، وكذا الحال في المجال الاجتماعي، والسياسي، لتتكفل ببنائه بناءً إسلامياً سليماً، ينعم بالأمن هو، ومن يدخل في حياته، أو يقع تحت تأثيره.
إن ما تعاني منه المجتمعات البشرية من ويلات ومصائب وحروب، يرجع في أسبابه إلى غياب شرع الله عن التطبيق، لتسود بدلاً عنه شرعة الأنظمة الوضعية في الغالب، والتي يتحكم فيها القوي بالضعيف.
إن شريعة الخالق لم تقتصر على مجالات تعامل الإنسان مع الإنسان وحسب، بل امتدت لتشمل التعامل مع الحيوان، فتحرّم قتله من دون مبرر، وتوصي بالرأفة به، كما إنها لم تـُبِح - مثلاً - صيد الحيوان لمجرّد اللهو.
الأكثر من ذلك، أن الشريعة أمرت بالتعامل مع الموارد الطبيعية بشكل متوازن ونافع للإنسان من دون أن تطال يد العبثية في الإسراف والإتلاف إليها.
لقد أوصت الشريعة كذلك بالاهتمام بالزرع فقد جاء على لسان الرواية:
(ارحموا عمتكم النخلة).
إن الشمول في الشريعة لا يدع مجالاً من المجالات إلا ويغمره بالسعادة وإفشاء العدل في مناحي الحياة كافة بما فيها الحكم والسياسة حيث يقول (تبارك وتعالى) في محكم كتابه العزيز:
((ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون....هم الظالمون....هم الفاسقون))4
((ألم ترَ إلى الذين يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت وقد أمروا أن يكفروا به ويريد الشيطان أن يضلهم ضلالاً بعيداً))5

4- العالمية: الإسلام خاطب كل بني الإنسان من دون تمييز في اللون، أو الجنس، أو اللغة، أو القومية والطبقة، فهو لا يقرّ مزاعم اليهود الذين يدّعون انهم شعب الله المختار! أو ادّعاءات الماركسية بشرعية دكتاتورية طبقة العمال! أو بأساطير الفرس الذين قالوا بقداسة أرضهم! أو افتراءات الرأسمالية بسيادة الإنسان الأبيض على غيره! وإن تغيّر بعضها الآن.
لقد خاطب الإسلام الناس كافة:
((وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيراً نذيراً ولكن أكثر الناس لا يعلمون))6

وقد استجاب لركب الإسلام نماذج مختلفة من بني الإنسان، فمنذ الشوط الأول اصطف سلمان الفارسي، وصهيب الرومي، وبلال الحبشي إلى جانب المسلمين العرب، وهاهم أبناء الإسلام في كل مكان من أرجاء المعمورة، لا يحدهم شيء، ولا يحول دون ترديد هتافهم الإسلامي الخالد حائل، عملاً بقول الله (عز وجل):
((يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير))7
إن هذا هو الذي يعطي الإسلام سر النفوذ في عقول الناس وقلوبهم كافة على مدى الدهور وفي كل المجتمعات، ويجعله الوريث الطبيعي والمستجيب الفطري لنداءات النفس البشرية السليمة.
إن الإسلام لا ينفي اليهودية أو النصرانية كتاباً أو شريعة، بل يُقرّ وجودهم التاريخي، ويقدّس أنبياءهم (عليهم وعلى نبينا محمد وآله أفضل الصلاة وأتم التسليم)، في نفس الوقت الذي يثبت حقيقة كونه خاتم الإديان (الإسلام)، وأن محمداً (صلى الله عليه وآله وسلم) خاتم الأنبياء.

5- المواكبة: الإسلام يحمل ميزة مواكبة الحياة على الرغم من تقادم الزمن، وتغير الظروف، واختلاف المجتمعات، وهذا قد يبدو للوهلة الأولى أمراً صعباً إن لم يكن مستحيلاً، إذ كثرما يتردد سؤال في بال الشباب وهو: كيف يتأتى للإسلام عنصر المواكبة؟ على الرغم من البون الشاسع بين عصر انطلاقته في القرن السابع الميلادي وعصرنا الحاضر!! وما سيستمر عليه ركب البشرية الموغل في استقبال الجديد.
إن الشريعة الإسلامية ضمّت في ثناياها أحكاماً تخاطب الإنسان في كل مجالات حياته من دون استثناء، وإذا كانت عناصر التكوين الثابتة في الشخصية تطلـّبت أحكاماً ثابتة لم تتبدل كتلك التي حددت صلاته، وصومه، وأحكام زواجه، والكثير من عناصره الثابتة، فإن العناصر المتغيرة من شخصيته، هي الأخرى تطلـّبت مراعاة الشريعة لها من خلال الأحكام المرنة التي تواكب المتغير في حياته وظروفه.
أحسب أن مسألة الثبات في الشخصية أمر واقع حتى على الصعيد التكويني الطبي، الذي يفرض حقيقة الأكل والشرب، ومواجهة الطبيعة، وتقلبات الطقس، وهو ما يتطلب أنظمة طبية تراعي في ثوابتها ثوابت الجسم، وفي متغيراتها متغيراته.
إن الحج تكليف ثابت في ذمة المكلف، والاستطاعة شرط في صحة التكليف، بيد أن الظروف الحالية بما زخرت به من إمكانات النقل المتطور، والسكن الآمن، والخدمات المتميزة كلها جعلت من الاستطاعة أمراً أيسر من ذي قبل، وهو ما أتاح الفرصة لأكبر عدد ممكن من الوافدين لبيت الله الحرام لأن يؤدوا الفريضة.
بناءً على ما سبق يمكن قول مثل ذلك في الكثير من المجالات، كوسائط النقل، أجهزة التعليم، الإعلام، الفن، الرياضة والبناء.
بل راح الإسلام إلى أبعد من ذلك، حين سابق الزمن، وناشد أصحاب الاختصاص بفتح طرق مباحة بعد أن أغلق الكثير من الطرق والمسالك اللاإنسانية في التعامل

والتـي كـادت أن تعم عـالم البـشرية كالـذي مُـورِس بحـق المجـانين وكـاد أن يقـضي عليهم، أو إشـاعة (قتل الـوأد) بحجـة تحديد النـسل كمـا هـي الحـال فـي بعض بلـدان العـالم كالـصين والهنـد، أو (قتـل المـشوهين) تحـت ذريعـة الحيلولـة دون تعاسـتهم والتخفيـف مـن معانـاة أهلـيهم، ويـدفع بهـم لاسـتكناه المـستقبل، ومعرفـة مـا يمكـن استـشراف المـستقبل مـن خلالـه، فكانـت هندسـة الجينـات- مـثلاً-، أو تطـور علـم الأمراض العقلية والنفسية.

6- **الواقعية:** وتعني أن الأحكام الشرعية تقوم على ملاكات من المصالح والمفاسد، الله (تبارك وتعالى)، أعلم بها.
إن تسليم العبد المؤمن لحكمة الله تستدعي بالضرورة أن يسلم بأن الله لا يأمر بشيء إلا وفيه مصلحة، ولا ينهى عن شيء آخر إلا وفيه مفسدة.
إن النظـرة الموضـوعية للـشريعة الإسـلامية، تكـشف عـن آثـار الحكمـة البالغـة فـي مفرداتهـا، وإن مـا وصـلت إليـه الإحـصاءات والتجـارب العلميـة فـي الكثيـر مـن المجالات يؤكد هذه الحقيقة.
إن تحريم شرب الخمر، وقتل النفس البريئة، والسرقة، والتمييز العنصري، وإرهاب الآمنين، والتحكم بأموال الآخرين، وعقوق الوالدين، والإساءة للجار، وإهمال النفس والإلقاء بها إلى التهلكة من جانب، وعدم المساواة بين المرأة والرجل في مجال الفـوارق الموضـوعية، وإلغـاء التمييـز علـى أسـاس العنـصر أو اللـون، أو الـدم مـن الجانب الآخر يؤكد واقعية الإسلام.
إن الانطلاقة التجريبية في ميادين الحياة الحسية عزّزها في أكثر من مجال، بيد أن إخضاع الأحكام الفقهية والأمور الغيبية إلى الآليات التجريبية كالمخدرات والخمر كلف البشرية ردحاً طويلاً من زمن التطبيق الخاطئ، لتعود بعد عناء طويل إلى ما قاله الشرع منذ زمن بعيد، في مجـالات القانون الجنـائي، وتنظيم الأسرة، والتعبير عن الرأي... إلخ، كل ذلك يؤكد حقيقة الواقعية في التشريع الإسلامي.

8- الآخروية: من المذاهب الاجتماعية ما يؤكد على إلغاء أو تغييب الآخرة من حياة الإنسان، ويبـرز الدنيويـة فـي حياتـه علـى أنهـا هـي الأسـاس أو الوحيدة، مثلمـا فعلـت (العلمانية) و(الوجودية) و(المادية).
ومن المذاهب الاجتماعية، ما قصر التفكير علـى الحياة الآخرة، وانكفأ عن الحيـاة الـدنيا، كمـا فعلـت الرهبانيـة، والـصوفية، ومنهـا مـا فـصل بـين الحيـاة الـدنيا والحيـاة الآخرة، كما في النصرانية المحرّفة، التي قالت:
(بأنّ ما لله لله، وما لقيصر لقيصر).
و(أنّ الله ملك الارواح، وان قيصر ملك الابدان).
ومنهم من اتخذ مـن الـدنيا منطلقاً أساسـاً مـع إيمانـه بـالآخرة، وحصر كـل مـا ارتـبط بالآخرة بأضيق دائرة ممكنـة، فالـصلاة والـصوم، والحجـاب، وفريـضة الحـج، وأداء الحقوق الشرعية، كلها مما يؤدّى في سني عمره المتأخرة، وقد يتملك صـاحب هـذه النظرة العجب حين يلتقي شاباً أو شابة وهو ملتزم بأحكام الشريعة.

إن النظرة المتوازنة هي التي تعطي الآخرة الحصة الأوفر، والتي تستحق أن يتخذ منها منطلقاً في العمل، فالشريعة الإسلامية ركزت على الحياة الآخرة، معتبرة إياها أنها هي الحياة الحقيقية:

((وما هذه الحياة الدنيا إلا لهو ولعب وإن الدار الآخرة لهي الحَيَوان لو كانوا يعلمون))8

كما أكـدت على أهمية الانطلاق منها (الحياة الآخرة)؛ لرسم طريق الحياة:

((وابتغ ِفيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنسَ نصيبك من الدنيا وأحسن كما أحسن الله إليك..))9

((ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن فأولئك كان سعيهم مشكوراً))10

إن التركيز على الآخرة لا يعني بأي حال أن يهمل الإنسان حياة الدنيا، فالقرآن الكريم لا يلغي ذلك:

((ومنهم من يقول ربنا آتِنا في الحياة الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار))11

وقد جاء في الحديث الشريف:

((ليس منا من ترك دنياه لدينه أو ترك دينه لدنياه))12

8- الانفتاح: الثقافة الإسلامية تتميز بأنها منفتحة، لا تقر الانغلاق والتأطر بالماضي، لا لشيء إلا لأنه ماضٍ، كما لا تتكفئ على مكان ما مهما كان لهذا المكان من قيمة أو خصوصية، الإسلام رفض للإنسان أن يكون إفرازاً عصارياً للبيئة، أو امتداداً لاإرادياً للآباء والأجداد:

((بل قالوا إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مهتدون))

إنه دين (الإسلام)، أراد لمعتنقيه أن يأخذوا العقيدة عن دليل، وأن ينفتحوا على كل مخالف لهم، ويطالبوه بالبرهان:

((...قل هاتوا برهانكم ان كنتم صادقين))

كما انطلق بالمؤمنين ليتحركوا حيثما تتحرك الحكمة بغضّ النظر عن حاملها حتى إذا كان كافراً أو منافقا، فقد جاء في الحديث الشريف:

(الحكمة ضالة المؤمن فخذ ضالتك حتى من أهل النفاق)

وأراد للمسلم أن يطلب العلم ولو من غير المسلمين فقد جاء في الحديث الشريف عن الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم):

(اطلب العلم ولو كان في الصين)

كل ذلك يشير بصراحة إلى اهتمام الإسلام بأهمية الوصول إلى الحقيقة وبناء المجتمع على أسس علمية، وإقراره على أن العلم ليس حكراً على أحد، فقد تتلجلج الحكمة على لسان المنافق فيقذفها في أذن المؤمن كما ورد في الرواية.

إن هذا الانفتاح لا ينبغي أن يُمارَس من موقع الغفلة، أو عقدة الشعور بالدونية، أو فقدان الثقة بالنفس، فقدت زخرت صفحات التاريخ بأنصع صور الانفتاح على الآخر من دون أن تعاني من عقدة الانغلاق على الذات مما ساهم إلى حد كبير

بإثراء الفكر الإسلامي، وتأهيل المسلمين لأن يمارسوا دورهم في إثراء المسيرة الثقافية عبر مجالس الاحتجاج.
إن الموضوعات التي كانت تُطرَح لا تقتصر على باب من أبواب العلم، ولا على شبهة من الشبهات، والانفتاح هذا كان يمارس على صعيد منح المتلقي من أبناء الديانات الأخرى بينما يمارس المعطي الإسلامي دوره في الإثراء، وأحياناً يستحث المسلم على أن ينفتح على غير المسلمين من موقع الأخذ والتعلم.
إن من ظواهر الصحة أن يتردد على لسان المثقف الإسلامي، الاستشهاد بحكمة من أصحاب المذاهب الاجتماعية الأخرى، دينية أم غير دينية، كقول السيد المسيح (عليه السلام)، أو النبي ذي العزم موسى (عليه السلام)، أو حكيم الصين (كونفوشيوس)، أو (سقراط)، ما يؤشر على وجود المشترك الديني والمشترك الإنساني.

9- الإنسانية: لقد أولى الإسلام الإنسان رعاية خاصة، وكرّمه بما هو إنسان بغضّ النظر عن معتقده، وثقافته، ووعيه:
((ولقد كرمنا بني آدم وحملناهم في البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلاً))
لقد أشاد الإسلام صرح البناء المدني للمجتمع على أسس إنسانية ابتداءً في العلاقة الزوجية، وما أودع الله (تبارك وتعالى) فيها من مودة ورحمة، لتدّخر كل مشاعر الحب، وتتوشح بأنبل الأحاسيس، وتعيش حالة من الاستقرار والسكينة، ما تصلح معها أن تكون نواة صالحة في المجتمع، تنمو، وتتفاعل مع أمثالها، لإيجاد المجتمع الإنساني الذي يزخر بالمعاني الإنسانية، ويعطيها قاعدة عريضة، يقوم عليها بناؤه وتتفاعل مع قيمها معتقداته وأحكامه:
((ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة...))
واستمر معها إلى مرحلة العطاء التكويني في الإنجاب؛ ليصوغ العلاقة مرة أخرى على نفس الأساس، حيث يأمر الولد بالإحسان إلى الوالدين بغض النظر عن دينهم، ومدى التزامهم، بل حتى إذا ما تعرّض الولد إلى ضغوط عنف من الوالدين، لحمله على الشرك يأمره الله (تبارك وتعالى) بعدم الطاعة من دون أن يخلّ بقاعدة (المصاحبة بالمعروف):
((وإن جاهداك على أن تشرك بي ما ليس لك به علم فلا تطعهما وصاحبهما في الدنيا معروفاً....))
كما ثبّت (إطار التقوى) للاجتماع الذي تتحرك فيه كل العلاقات من الشعوب أو القبائل المكوّنة لذلك الاجتماع:
((ياأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم))

الخاتمة

يتعرض الإسلام اليوم إلى حالة من التشويه أكثر من أي مرحلة مضت؛ مما يستدعي التصدي لحمل المسؤولية في تصحيح الصورة من جانب، ومن الجانب الآخر تطبيق الإسلام في مناحي حياتنا المختلفة، وتبقى الثقافة من أجل التطبيق، ومن أجل الدعوة هي السبيل الوحيد الذي يأمر به الإسلام.

إبراهيم الجعفري 06\1\2002م 22\شوال\1422هـ